مجلة بوابة الباحثين للدراسات والأبحاث
Researchers Gate Journal for Studies and Research
ISSN (Print): 3080-1354 ISSN (online): 3079-787X
Volume: 1, Issue: 3 2025

الاستفهام في نسيب ابن زيدون

Interrogation in Ibn Zaydun's Love Poetry

أ.م.د. سعد علي جعفر المرعب: كلية الفنون الجميلة، جامعة بابل، العراق.

Assistant Prof. Dr. Saad Ali Jaafar Al-Morebb: College of Fine Arts, University of Babylon, Iraq.

Saad.ali@uobabylon.edu.iq

الملخص:

لقد تناول هذا البحث إحدى الظواهر البلاغية المعروفة، وقد تمّ رصدها والبحث عنها في ديوان الشاعر ابن زيدون؛ لما عرف عنه من الحس المرهف المتأثر بالطبيعة الخلابة التي عاش الشاعر في كنفها، فضلًا عن لواعج وآلام الحب والعشق التي كان يعاني منها الشاعر بعد انتهاء علاقته بولادة بنت المستكفي، ولِما يخرج الاستفهام من غرضه الأصيل لمحاور بلاغية تعبر عن شجون الشاعر. إنّ حياة ابن زيدون الأدبية وحسه المرهف وطبيعة الأندلس وحبه لولادة أهّلوه ليكون شاعر الأندلس الأول، فشعره صدى لعاطفته المرهفة وحبه لأرضه وطبيعتها وحبه لولادة؛ فغزل ونسيب ابن زيدون جمع بين حب الطبيعة وحب ولادة، أما أسلوبه الفني فكان يأتي على شكل قصائد غزلية مستقلة أو مقدمات غزلية طويلة ومتوسطة لقصائد مدحية، وهي بالجملة تشكل ثلث ما ورد في الديوان. فكان استخدام المحسنات اللغوية عند ابن زيدون ومنها أدوات الاستفهام في القصائد الغزلية وخروجها لمعانٍ مجازية، قد زاد شعر النسيب عند ابن زيدون بهاءً وجمالًا.

الكلمات المفتاحية: الاستفهام، ابن زيدون، الغزل، ولادة.

Abstract

This research dealt with one of the well-known rhetorical phenomena, which was observed and researched in the diwan of the poet Ibn Zaydun, owing to his renowned delicate sensibility influenced by the picturesque nature in which he lived, as well as the pangs and pains of love and passion he suffered after the end of his relationship with Wallada bint al-Mustakfi, and how interrogation deviates from its original purpose to rhetorical dimensions expressing the poet's sorrows. Indeed, Ibn Zaydun's literary life, his delicate sensibility, the nature of Andalusia, and his love for Wallada qualified him to be the foremost poet of Andalusia; his poetry is an echo of his delicate emotions, his love for his land and its nature, and his love for Wallada; thus, Ibn Zaydun's ghazal and amatory verses combined the love of nature with the love of Wallada. His artistic style appeared as independent ghazal poems or long and medium-length amatory introductions to eulogies, which collectively constitute one-third of the diwan's content. The use of linguistic embellishments by Ibn Zaydun, including interrogative tools in love poems and their deviation to metaphorical meanings, significantly enhanced the splendor and beauty of his amatory poetry.

Keywords: Interrogation, Ibn Zaydun, Ghazal (Love Poetry), Wallada.

المقدمة

ابن زيدون شاعر كبير، تجري قصائده على ألسنة الناس، ويتبوأ مكانة سامقة في ديوان العرب، وربما هو أعلى تجليات الإبداع الشعري العربي في الأندلس، فقد أجمع نقاد الأدب الأندلسي من العرب والغربيين على أن ابن زيدون هو أعظم شعراء الأندلس وأكثرهم إبداعًا وتجديدًا في شعره.

مثل ابن زيدون في شعره وصف الطبيعة والغزل ووصف مجالس السمر والشراب ووصف البلدان التي أصابها الدمار، فضلًا عن موضوع الاعتذار والاستعطاف. أما العوامل التي كانت وراء إبداعه فتتجلى بـ (ثقافة الشاعر، وطبيعة الأندلس، ومجتمعه، وتجارب الشاعر، ونشأته وطبيعته ومزاجه).

أما غزل ابن زيدون فقد أضاف إليه ثروة وفيرة من المعاني المبتكرة التي لم تخطر في بال من سبقه من المتغزلين، وساعده حبه المتوقد لولادة في حال الوصل أو الهجر، فلم ينقل هواه إلى امرأة أخرى، فاستحوذت ولادة على جماع عاطفته وسويدائه.

تُلحظ في غزله امتزاجه بوصف الطبيعة امتزاجًا عضويًا، فالمرأة والطبيعة كانتا مصدرين للجمال في أبهى صوره. وابن زيدون موكل بالجمال، تستهويه مفاتن المرأة الحسناء كما تستهويه سائر مشاهد الطبيعة، فالارتباط وثيق بين وصفي الطبيعة والمرأة؛ فمشاهد الطبيعة تذكره بولادة وغزله يستنبط من الطبيعة ما يذكره بمحاسن المرأة.

إن غزل ابن زيدون حسي مادي، فالشاعر ينظر للمرأة بأنها جسد جميل تثير في محاسنها الأشواق وهذا يتفق وطبيعة الأندلس المترفة ومجتمعها المنغمس في اللهو والمجون (كفافي، 2009، ص 118). فإذا انتقلنا من أفق المعاني إلى أفق الأداء، اتسع مجال الإبداع في شعر ابن زيدون وتحقق قول الجاحظ بأن الشأن للألفاظ لا للمعاني، فالأداء مجاله الإبداعي المتألق، فلابن زيدون ذائقة

مرهفة في اختيار الألفاظ المناسبة لموضوعه الذي يعالجه، ومن هذه الألفاظ (أدوات الاستفهام) وما لها من جمال بلاغي وأسلوبي في قصائده الغزلية حيث تؤدي إلى تفجير المعاني وإخراج المنغلق منها وتفتيق الخامل من الأفكار (صبري، 1989، ص 178).

حياة ابن زيدون

ينتمي الشاعر من جهة أبيه إلى بني مخزوم فهو أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومي. وصفه ابن حيان المؤرخ بأنه ذو الأبوة النبيهة بقرطبة وأنه كان من أبناء وجوه الفقهاء بقرطبة أيام الجماعة والفتنة (عبد العظيم، 2004، ص 39). وكان والده من فقهاء قرطبة وأعلامها المعدودين، وكان ضليعًا في علوم اللغة بصيرًا بفنون الآداب، يذكره القاضي عياض في تراجمه لأعلام الفقهاء أن والده كان متفننًا في ضروب العلم جمّ الرواية والمعرفة فصيحًا جميل الأخلاق (عبد العظيم، 2004، ص 91). تتلمذ بدراسته الأولية فدرس قراءة القرآن وتعلم النحو والصرف، ودرس تفسير القرآن الكريم ودراسة علوم الدين والفلسفة وأصول اللغة العربية، وتتلمذ على يد أساتذة عديدين أولهم أباه.

تعلّق ابن زيدون بولادة ووفر له حبها أروع ما صاغه من الشعر، وقد حشد خصوم الشاعر أمرهم وأدخلوا في روع أمير قرطبة أن الشاعر يتآمر على حكمه وأنه ضالعٌ في الدعوة لهشام الخليفة المزعوم بإشبيلية وأوهموه أن ابن زيدون أطلق لسانه في هجائه وأن غشيانه مجالس ولادة مريبٌ لأنه يخفي خلفه مؤامرات سياسية مع أقاربها الأمويين المخلوعين (السعيد، 1972، ص 139)، ومن ثم سجن وظل طويلًا ثم فرّ من سجنه بعد إخفاق توسلاته باستعطاف الأمير، ووجد الشاعر بإشبيلية

مجلة بوابة الباحثين للدراسات والأبحاث
Researchers Gate Journal for Studies and Research
ISSN (Print): 3080-1354 ISSN (online): 3079-787X
Volume: 1, Issue: 3 2025

صدرًا رحبًا فأدناه الحاكم منه (السعيد، 1972، ص 43)، ولكن نفس الشاعر تجذبه لقرطبة موطن صباه ومسرح هواه فكتب لولادة:

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا ونابَ عنْ طيب لقيانا تجافينا

طوى الشاعر في ظلال المعتضد عشرين عامًا بلغ فيها أرقى المناصب وقاد الدولة التي اتسعت رقعتها إلى أضعاف ما كانت عليه. ثم ولي المعتمد بعد أبيه، وكان الأمير مفتونًا بابن زيدون لأنه تتلمذ على يديه.

امتاز ابن زيدون بالظرف ورقة الحديث وسرعة البديهة، وهيأتها له ذاكرة قوية وحافظة مستوعبة وفطرة مواتية كل المؤاتاة (أبو زيد وكفافي، 2011، ص 63).

شعر ابن زيدون

لقد مرت حياته الفنية في ثلاثة أطوار: أولها: تقليدي محض امتد إلى الثلاثين من عمره ولم يبق من شعره لهذه الفترة إلا آثار قليلة. وثانيها: أخصب فترة في حياته الفنية امتدت من الثلاثين إلى الخمسين، وفيها دبّج الشاعر أعظم آثاره وظهرت شخصيته الفنية قوية طاغية، ففي هذه الفترة أحب وهجر وتسلم مناصب وسجن ونعم بالأمان وشرّد، فكتب ذلك كله قصائد ومقطعات وثالثها: امتد من الخمسين حتى نهاية حياته وكان شيخًا يراعي في إنتاجه المقتضيات السياسية والواجبات الرسمية، فاختفت شخصيته خلف أعباء منصبه، وتوارت عاطفته وراء حسن صياغته التي بالغ فيها ليعوض ما ينقص فنه من حرارة الوجدان وغلبت عليه ظاهرة التكرار. أما غزله فيستغرق ثلث ديوانه سواء كان غزلًا تقليديًا في مقدمة المدائح، أم غزلًا مستقلًا مقصودًا لذاته، فالشاعر ينفس في غزله عن حبه ويبث فيه عواطفه الحارة ويطلق لوجدانه العنان، وكان غزله العذري العفيف لا يعدو الخطرات

الشعرية العابرة، أما معظم غزله فحسي مادي، فالشاعر مندفع إلى الاستمتاع بالحياة والإقبال على اللذات وقد أعجب نيكلسون بقصائده وضرب بها مثالًا لتوضيح الشعور العميق بالطبيعة المميزة للأندلس ممتزجًا شعوره بالحب العنيف، مشابهًا للشعراء الغربيين، مما جعل المستشرقين يرون أن للأندلس أثرًا قويًا في شعر الطبيعة الأوروبي وخاصة ابن زيدون الذي ربط بين الطبيعة والحب. ولقد انفرد ابن زيدون بين شعراء العربية بمزجه بين حبه للطبيعة وحبه للمرأة وحبه للوطن وحبه لعشيرته، ولذا يطلق عليه شاعر الحب والطبيعة (بهنام، 2000، ص 132).

مقدمة النسيب في شعر ابن زيدون

غلب طابع الغزل لأن قيثارات القلوب أشد اهتزازًا للحنه، ولتنوع نغمات لحنه فمنها المشجي والمفرح، وباستطاعة الفنان أن يشقق من هذين اللونين ألوانًا عديدة متدرجة في الشجو والفرح.

قد التفت النقاد إلى مقدمة القصيدة بصدد رسم منهج لشعراء المديح خاصة. ولقد ورد عند ابن المعتز باسم (حسن الابتداء) (ابن المعتز، د.ت، ص 75). أما أبو هلال العسكري فيقول: (إذا كان الابتداء حسنًا بديعًا... كان داعية إلى الاستماع لما يجيء بعده من الكلام) (العسكري، 1970، ص 431)، فقد لمح للعلاقة بين المطلع والمناسبة في قصائد المدائح والتهاني.

دعا ابن منقذ إلى تحسين الاستهلال والتحرز مما يتطير منه خاصة في المدائح والتهاني (ابن منقذ، 1960، ص 431). ولا شك أن في الغزل عنصران أحدهما التشويق وثانيهما الرصد للموضوع، فدريد بن الصمة مثلًا رصد لمرثية أخيه بالحديث عن أم معبد التي كني بها عن الدنيا أو المنية (الربيعي، 1973، ص 118)، والرصد هي الوظيفة الرئيسية أما التشويق فهي الوظيفة الثانوية.

تحدث ابن رشيق عن مقدمات القصائد بالنسيب (لما فيه من عطف القلوب واستدعاء القبول بحسب ما في الطباع من حب الغزل والميل إلى اللهو والنساء) (ابن رشيق القيرواني، 1963، ص 232)، فلحظ ابن رشيق العلاقة بين المطلع والموضوع فضلًا على أن التشبيب عنصر تشويق واستدراج وهو ملازم لقصيدة المدح.

اهتم الشعراء بالمقدمة الغزلية وذهب القدماء إلى أن المهلهل أول من قصّد القصائد وأطالها وقال الغزل في أوائلها (الأصبهاني، د.ت، ص 57). ويجدر الانتباه أن الحديث عن الطلل يؤدي إلى الغزل بالحديث عن المحبوبة فيصفها وهذه الصلة الوثيقة بين الطلل والغزل إلا لتبين أن الغزل (تعبير وصفي تصويري) (فيصل، د.ت، ص 203) فيصف المحبوبة ويعبر عن عواطفه ومشاعره تجاهها (أبو زيد وكفافي، 2011، ص 63). وتعدّ عند الشعراء الصعاليك (جزءًا أصيلًا في بناء القصيدة) (كفافي، 2009، ص 118) لاستخدامها بالتخفيف عن آلامهم وأحزانهم.

إن المقدمات الغزلية ليست قليلة وانتشارها (مرتبط بالواقع الاجتماعي والنفسي لكل شاعر، فجاءت المقدمات تحمل شحنات عاطفية قوية تدل على شخصيات أصحابها وإن ظهرت فيها صور مكرورة لأن الموقف العاطفي موقف إنساني يشترك فيه الناس جميعًا) (خليف، 1989، ص 176).

اهتم شعراء الأندلس بجمع عدد من العناصر في مقدمات قصائدهم التي محورها الرئيس الغزل والتشوق ووصف طيف الحبيبة فجمعوا إلى جانب الغزل بنوعيه (النسيب والتشبيب) محاور عن وصف الخمرة والشباب وذكر الأطلال والسرى ووصف الطبيعة، فينتقل الشعراء بين هذه المعاني حتى يصلوا إلى الغرض الرئيس (المدح) محافظين على وحدة القصيدة وتماسكها، فيتغزل الشعراء

الأندلسيون متشوقين لأحبتهم ثم يصفون مواضع لقاء أحبتهم ويصف العاشق حبيبته فتكون الطبيعة متكأً في غرضهم الشعري.

إذا ما أقبل عصرا الطوائف والمرابطين وجدنا ازدهار ظاهرة الغزل المصاحب لموضوعات أخرى في مقدمات القصائد لوجود شعراء كابن زيدون كثرت عندهم هذه الظاهرة كمقدمة من عشرة أبيات شبّب فيها بالحبيبة بصفات مستمدة من محاسن المرأة العربية فضلًا عن الصور المستمدة من الطبيعة الأندلسية الجميلة. وكذلك خصّ ابن زيدون مقدمة قصيدة استعطاف بالنسيب وتذكر الحبيبة ووصالها ووصف شوقه وسهره وضناه في حبها وبكائه على أيام الشباب. ويبدو أن الغزل مع عناصر أخرى في مقدمات القصائد قد شكل ربع القصيدة عند ابن زيدون.

لم تخرج معاني شعراء الأندلس في مقدمات القصائد ذات المحاور عما ألفناه في مقدمات شعراء العربية القدامى عند وصفهم محاسن الحبيبة، لكنهم جددوا في معاني الغزل وجمعوا معه في مقدمة واحدة وصف الطيف والشيب والخمر والبحر والرحلة والليل.

اهتم بعض الشعراء بوحدة القصيدة والربط بين المقدمة والغرض الأصلي لها بتقارب مدلول المقدمة مع هذا الغرض. ومن المقدمات قد استوحت بعض معاني المقدمات الموروثة وألفاظها وأسلوبها في حين تجد الإجادة في المقدمات الأخرى متمثلًا في جمع معانٍ مختلفةٍ في مقدمةٍ واحدةٍ، فضلًا عن الإجادة في الصور والاستعارات واستيحاء عناصر الطبيعة. ويلاحظ قلة استخدام الصنعة في المقدمة لارتباطها بأسى النفس وعذابها وإشراق الأمل في تصور حضور خيال الحبيبة، ويلاحظ استخدام البحور الطويلة لتعطي للشاعر متسعًا للتعبير عن خلجات نفسه (بهنام، 2000، ص 132).

لا يمكن أن يسمى النسيب لدى الأندلسيين كما يرى د. محمد مجيد السعيد غزلًا عذريًا بالمعنى المعروف لدى المشارقة، لكنه يتسم بروح العفة من وجد وشوق وهيام وعدم اقتصار الشعراء على لون واحد من الغزل، فهو ترفع عن الابتذال في القول، وتسام عن الإسفاف في المعاني المبتذلة والإغراق في المحسوسات المادية، فيكون هم الشاعر التخفيف بنفثاته الشعرية من اضطرابه وهمه وجيشان وجدانه (السعيد، 1972، ص 139).

اهتم الشعراء في مقدماتهم الغزلية بالمعاني المألوفة في المقدمات المشرقية سواء في النسيب أو التشبيب مع بعض الخصوصية الأسلوبية السهلة والمصطنعة بسبب التلون البيئي والحضاري، كالإكثار من المحسنات البديعية كالجناس والطباق والتكرار والمقابلة وبخاصة عند ابن زيدون. واهتموا بوصف المشاعر والأحاسيس واستعارة الصفات والصور والإكثار من معاني البكاء والصبابة والأسى والوشاة والهجر والجفاء والوفاء والعفاف والحصانة، وذكرها ابن زيدون خاصة مع جمعه بين ذكر الحبيبة وطيفها أو الجمع بين التشبيب والفخر، فضلًا عن جمعه بين ذكر الحبيبة حقيقة وطيفها في المقدمة الواحدة (السعيد، 1972، ص 43).

الاستفهام في نسيب ابن زيدون

يمثل التركيب المستوى الدلالي الأكثر وضوحًا في استثمار المعجم اللغوي، فإذا كان المعجم القاعدة اللغوية التي ينطلق منها الشاعر فإن التركيب يعني حجم الاستثمار المباشر لهذه القاعدة. وكان لابن زيدون في استثمار معجمه اللغوي الأثر الواضح في إنتاج تجربته الشعرية. وكان من بين الأساليب التي حققت حضورها فيه هي الاستفهام، وربما استفهاماته في معظمها ليست حقيقية، إذ لا تتطلب من المتلقي إجابات معينة فهي استفهامات مجازية تخرج لمعانٍ وأغراض يفرضها السياق عليها،

وبهذا يكون السياق المحدد الأساس لمعانيها المجازية لأن (فهم أي نص استفهامي لا يتم إلا بوضع هذا النص في سياقات متتابعة تستدعيها الإشارة الصوتية (الأداة) وتستلزم هذه الأداة في جميع الأحوال قرينة معنوية تستطيع أن تحلق بالحالة الصورية في الذهن) (صبري، 1989، ص 178).

وبعد الجرد الإحصائي لديوان ابن زيدون وجدت النتائج التالية:

1. ورد الاستفهام عمومًا بكل أدواته في (52) قصيدة.
2. ورد الاستفهام بما يخص كل أداة في (71) حالة منفردة.

أولًا: الهمزة

قال ابن زيدون:

أليس عجيبًا أنْ تشطّ النوى بكِ؟

فأحيا كأنْ لم أنشَ نفحَ جنابــكِ

ولم يلتقم شعبي خلال شِعابــكِ

ولم يكُ خلقي بدوُهُ من ترابـــكِ

ولم يكتنفني ـ من نواحيكِ ـ منشأ (ابن زيدون، 2004، ص 157)

فالشاعر هنا يدخل الهمزة على الجملة المنفية ليخرج إلى غرض مجازي وهو الإثبات والتوبيخ، فالاستفهام هنا (استفهام إنكاري) (الجارم وأمين، 2008، ص 166) يخاطب فيه قرطبة: أليس من العجيب أن تشط الدهر بكِ ويقل حظكِ من السياسة والأنس والحياة الجميلة في قرطبة، وكأنه أصبح أثرٌ من بعد عين جمال الطبيعة الأندلسية وروعتها، وكأنها تغيرت الأرض فهي ليست أرض حياته

وأفكاره وحبه في شعاب قرطبة وبداية حياته في تراب هذه الأرض. فهنا يستفهم كيف أن الحياة قد تغيرت به.

وقال ابن زيدون:

أما يُمحى عتابُكِ كلَّ يومٍ؟ أما يرجى ـ إلى وصلٍ ـ وصولُ؟

(ابن زيدون، 2004، ص 179)

استخدم الشاعر أداة الاستفهام (الهمزة) و (ما) النافية فخرجت الجملة المنفية لغرض العتاب والتوبيخ بتثبيت المعنى بـ (الاستفهام الإنكاري)، فيرى عدم واقعية العتاب وعدم الوصل والاقتراب من جنب ولادة. فهنا ينكر عليها بعدها وعدم الاهتمام بالرابط النفسي للحبيب.

وقال ابن زيدون:

ياويلتاهُ أيبقى في جوانحه فؤادهُ وهو بالأطلالِ مُرتهنُ؟

(ابن زيدون، 2004، ص 190)

فالشاعر استخدم الاستفهام بـ (الهمزة) مع الفعل المضارع، فخرج استفهامه لغرض (النفي) (الهاشمي، د.ت، ص 94) بعدم بقاء فؤاده بين جوانحه وسبب ذلك ارتهانه لأطلال أحبابه.

وقال ابن زيدون:

أفي الحقّ أنْ أشقى بحبّكِ أو أرى حريقًا بأنفاسي غريقًا بأدمعي؟

(ابن زيدون، 2004، ص 202)

خرج الاستفهام لغرض (التسوية) أي ليس من الحق أنْ أشقى بحبكِ وليس من الحق أيضًا أنْ أُرى حريقًا بأنفاسي غريقًا بأدمعي. وقد جاء الاستفهام تصديقيًا ففيه الإجابة بنعم أو لا.

وقال ابن زيدون:

أأُسلبُ من وصالكِ ما كُسيتُ؟ وأُعزلُ - عن رضاكِ - وقد وَليتُ؟

(ابن زيدون، 2004، ص 226)

فالاستفهام هنا خرج لغرض (الإنكار) فاستخدام الفعل (أأسلبُ) والفعل (أُعزلُ) والتقدير (أأعزلُ) ليبين للسامع إنكاره وكرهه وعدم رضاه لحاله، لأنه بحصوله على المنصب والجاه وتوليه السلطة جعله أقرب للابتعاد وعدم اللقاء بحبيبته.

وقال ابن زيدون:

أتهجرني وتغصبني كتابـــــي؟ وما في الحقِّ غصبي واجتنابي

أيجملُ أنْ أُبيحكَ محض ودي؟ وأنت تسومني سوء العـــذابِ

(ابن زيدون، 2004، ص 229)

فالاستفهام في البيتين السابقين خرج لغرض (النفي) فهو يلوم على حبيبته أنْ تهجره وتعذبه، فخرج الاستفهام لغرض عتاب وتوبيخ المحبوبة.

وقال ابن زيدون:

أيوحشني الزمانُ وأنتِ أُنسي ويُظلِم لي النّهارُ وأنتِ شمسي؟

(ابن زيدون، 2004، ص 240)

لقد خرج الاستفهام في هذا البيت لغرض (النفي) فالشاعر يستفهم من نفسه ومن حبيبته كيف يمكن أنْ يعيش وحيدًا وحبيبته بقربه، وكيف يظلم عليه النهار وحبيبته هي ضوء الشمس الساطع في حياته.

وقال ابن زيدون:

أحينَ علمتِ حظّكِ من فؤادي ولم تجهلِ محلّكِ من فؤادي

وقادني الهوى فانقدتُ طوعًا وما مكّنتُ غيركِ من قيادي

رضيتِ لي السّقام لباسَ جسمٍ كحلتُ الطرفَ منهُ بالسّهادِ؟

(ابن زيدون، 2004، ص 241)

إن الاستفهام في هذا البيت خرج لغرض (التنبيه على الخطأ)، فهنا يوبخها ويعاتبها على معرفتها حظه من فؤاده، ويزيد من توبيخها لرضاها له بالسقام بتقدير (أحين رضيتِ ..) ليكمل الإجابة بأنه قد رضي لنفسه تكحيل طرفه بالسهاد وعدم النوم.

وقال ابن زيدون:

ألمْ ألزم الصّبر كيما أخفّ؟ ألم أُكثر الهجر كي لا أُمل؟

ألم أرضَ منكِ بغير الرّضى؟ وأُبدي السّرور بما لم أنلْ؟

ألم أغتفر موبقات الذنوب؟ عمداً أتيتِ بها أم زللْ

(ابن زيدون، 2004، ص 248)

الشاعر يتكلم في قصيدته من الاستفهام إلى (التنبيه على ضلال الطريق)، ففي قصيدة (سلام الوداع) تكلم عن علاقته مع ولادة التي أحبها وأراد استمرار ذلك الحب وبادلها الود والصدق والوفاء، ولكنها كانت ذات شخصية لا تؤمن بالود والصدق والوفاء وقد جاء استفهامه إنكاريًا لتثبيت حاله وتوبيخها. فيقول لها إنه غير راضٍ عن علاقته معها ولكنه لزم الصبر حتى لا يتهم بخفة الشخصية،

مجلة بوابة الباحثين للدراسات والأبحاث
Researchers Gate Journal for Studies and Research
ISSN (Print): 3080-1354 ISSN (online): 3079-787X
Volume: 1, Issue: 3 2025

وأكثر البعد مع أنه يشعر بروحه بقربها كي لا يمل ويعتبر ضيقًا ثقيلًا في عينها، وأنه كان يتأسى ويرضى حتى بغضبها وعدم رضاها ويبدي فرحًا حتى بنفورها، ولا يأبى على نفسه إلا أن يغفر ذنوبها رغبة في رضاها ومحاولة لإصلاح علاقتهما التي ولدت ميتة.

ثانيًا: هل

قال ابن زيدون:

يهيبُ بدمعِ العينِ حتّى تدفّقا　　　وهل يملكُ الدمعَ المشوقُ المصبّأُ؟

(ابن زيدون، 2004، ص 156)

خرج الاستفهام لغرض (النفي) لغرض تأكيد الحكم والتقدير: (لا يملك المشوق المصبّأُ الدمع)، فهنا ينكر مقدرته على النسيان.

وقال ابن زيدون:

أقرطبةُ الغراء! هل فيك مطمعُ؟

وهل كبدٌ حرّى لبينكِ تنقــعُ؟

وهل لليالكِ الحميدةُ مَرجِعُ؟ (ابن زيدون، 2004، ص 157)

خرج الاستفهام هنا لغرض (النفي) ليتكلم عن حاله بعد انتهاء علاقته بولادة، فيقول بعدم الرجوع والابتعاد وعدم الاهتمام بالأيام السابقة.

وقال ابن زيدون:

ياليتَ شِعري ـ ولم نُعتِبْ أعاديكم　　　هلْ نال حظًّا من العتبى أعادينا

(ابن زيدون، 2004، ص 165)

مجلة بوابة الباحثين للدراسات والأبحاث
Researchers Gate Journal for Studies and Research
ISSN (Print): 3080-1354 ISSN (online): 3079-787X
Volume: 1, Issue: 3
2025

فالاستفهام بـ (هل) خرج لغرض (النفي والإنكار) بمعنى (لا)، فالعتاب يكون بين الأصدقاء لغرض جلاء الصداقة والابتعاد عن الضغينة، فهو لم يغدر بها بعد أن تركها وتركته، ولم يذهب إلى أعدائها ويذكرها بأنها كانت ستظل حبه العزيز على قلبه بدليل عتبه إياها، ولو كان لم يبق في قلبه شيء إليها لاعتبرها كأعدائه ولم يعتب عليها.

وقال ابن زيدون:

وإسأل هنالك: هل عنّى تذكّرنا إلفًا تذكّرهُ أمسى يعنّيـــنا؟

فهل أرى الدّهر يقضينا مساعفةً فيهِ وإنْ لم يكن غبًّا تقاضينا؟

(ابن زيدون، 2004، ص 170)

في البيت الأول خرج الاستفهام لغرض (الإنكار والارتياب) وعدم التثبت، لأنه يذكر أيامه في القصر مع ولادة، فيخاطب البرق ويريد التأكد هل ما زالت تذكره أم جحدت حبه لها ويرى نسيانها له. وفي البيت الثاني خرج الاستفهام لغرض (النهي)، فهو ينكر على الدهر أن يرجع الأيام الخوالي التي مضت على الإنسان، فالأيام تذهب بخيرها وشرها.

وقال ابن زيدون:

شبابُ أفقٍ همّ أن يشيبا بادرنَ سعيًا هلْ رأيتَ الذّيبا؟

(ابن زيدون، 2004، ص 186)

وظّف الشاعر الاستفهام لغرض (التشويق) وتشكيل الصورة، فهو يصور إحدى صواحبه بمجيئها إليه كأنها الذئب في حركته ليلًا.

وقال ابن زيدون:

ألا هلْ إلى (الزّهراءِ) أوبةُ نازحٍ تقصّى تنائيها مدامعهُ نزحًا

(ابن زيدون، 2004، ص 188)

قد خرج الاستفهام بـ (هل) مع أداة العرض والتحضيض (ألا) إلى غرض (النفي)، فهو يعبر عن اللاعودة إلى قصر الزهراء مع الحزن والفراق.

وقال ابن زيدون:

هل تذكرون غريبًا عادهُ شجنُ من ذكركم ـ وجفا أجفانهُ الوسنُ؟
ياهلْ أجالسُ أقوامًا أحبُّهـمُ؟ كنّا وكانوا ـ على عهدٍ ـ فقد ظعنوا
أو تحفظونَ عهودًا لا أضيّعها إنّ الكرام ـ بحفظ العهد ـ تمتـــحنُ

(ابن زيدون، 2004، ص 190)

إن الشاعر في الأبيات المتفرقة من قصيدة واحدة جاء الاستفهام لغرض (النفي)، فهنا حديثه حديث الذات أو الضمير أو المونولوج الداخلي، فالشاعر هو السارد لمعاناته بتذكر أهله وأولاده ووطنه وهل يمكن اللقيا بهم، فهو يشك في ذلك وربما يعتقد بعدم رؤيتهم.

وقال ابن زيدون:

هل لداعيكِ مجيب؟ أمْ لشاكيكِ طبيب؟

(ابن زيدون، 2004، ص 196)

قد خرج الاستفهام لغرض (النفي)، فالشاعر يتكلم عن إعراض ولادة لدعاء الشاعر ولا يوجد طبيب يتشكى لمرضه.

وقال ابن زيدون:

وهلْ قلبٌ كقلبكِ في ضلوعي فأسلو عنكِ حينَ سلوتِ عنّي؟

(ابن زيدون، 2004، ص 199)

أخرج الشاعر الاستفهام بـ (هل) لغرض (النفي)، فينقد نفسه لعدم تركه حبها لأنه ليس له من العواطف الكاذبة والمشاعر الزائفة كما تحمل محبوبته من الزيف والخداع في حبها.

وقال ابن زيدون:

يا معطشي من وصالٍ كنتُ واردهُ هل منكِ علّةٌ إنْ صِحتُ: (واعطشي)

(ابن زيدون، 2004، ص 209)

فقد أخرج الشاعر الاستفهام لغرض (الاستئناس)، فهو يتمنى حصول الاقتراب بينه وبين ولادة.

وقال ابن زيدون:

ألا ليت شعري هلْ أصادفُ خلوةً لديكِ فأشكو بعض ما أنا واجدُ؟

(ابن زيدون، 2004، ص 213)

خرج الشاعر بالاستفهام إلى غرض (التشويق)، فالشاعر يتمنى ويرغب بلقاء محبوبته ومقابلتها.

وقال ابن زيدون:

ما كانَ حبّكِ إلاّ فتنةً قدرتْ هلْ يستطيعُ الفتى أنْ يدفع القدرا؟

(ابن زيدون، 2004، ص 217)

فالشاعر أخرج الاستفهام بـ (هل) لغرض (النفي)، فلا يستطيع الفتى دفع القدر، فالشاعر ينفي عن نفسه تدخله بقضية الحب وكأنها كالمصير المحتوم.

وقال ابن زيدون:

باللهِ هل كان قتلي في الهوى خطأً   أم جئتهُ عامدًا ظلمًا وعدوانًا؟

(ابن زيدون، 2004، ص 227)

فالشاعر أخرج الاستفهام لغرض (الإنكار)، فيذكر تمادي هجر ولادة ويستفهم وينكر، هل أتى لحبها خطأً أم بالعمد والظلم بأنها أوهمته بالحب ثم تركته.

وقال ابن زيدون:

بالله قل لي: هلْ وفى؟   فقال: (لا، بلْ غدركْ)

(ابن زيدون، 2004، ص 233)

قد أخرج الشاعر الاستفهام لغرض (التشويق)، فيتكلم عن غدر ولادة وعدم الوفاء له بأنه يسأل الليل عنها ويناجيه وكأن الليل يتكلم فيجيبه مباشرة بعدم الوفاء له.

وقال ابن زيدون:

فديتكِ إنّ الشوق لي ـ مذ هجرتني ـ   مميتٌ فهل لي ـ من وصالكِ ـ باعثُ؟

(ابن زيدون، 2004، ص 237)

قد خرج الاستفهام لغرض (النفي) بأن شوقه لن ينتهي إلا بلقاء ولادة.

وقال ابن زيدون:

لقد أعيا تلوّنكِ إحتيالي   وهلْ يغني إحتيالٌ في ملولِ؟

(ابن زيدون، 2004، ص 253)

أخرج الشاعر الاستفهام لغرض (النفي)، فيقول: لا يغني طول الصبر مع ولادة الملولة، وأنه مرض بسبب صفة الملل التي تتسم بها، وأنه سرعان ما سيتركها.

وقال ابن زيدون: قائلاً:

(هلْ مزايـــــــــدٌ رابحًا؟ ثمّ مَنْ يزنْ؟)

(ابن زيدون، 2004، ص 254)

فخرج الشاعر بالاستفهام لغرض (النفي) ليجزم بأن غدر ولادة له لن يعوضها سلطان الأرض لأن المزايدة على حبها له هي الخاسرة الكبرى.

ثالثًا: متى

قال ابن زيدون: إذْ الدنيا متى نقتدْ أبيَّ سرورها يتبعْ

(ابن زيدون، 2004، ص 140)

استخدم الشاعر أداة الاستفهام كظرف زمان ثم خرج لغرض (التشويق)، فالغزل مقدمة لقصيدة هجائية ليقول الشاعر بأننا في كل زمان نحصل على ما نريد من الملذات والملاهي.

وقال ابن زيدون:

متى أبثُّكِ ما بي؟ يا راحتي وعذابي

متى ينوب لساني - في شرحه - عن كتابي؟

(ابن زيدون، 2004، ص 177)

مجلة بوابة الباحثين للدراسات والأبحاث
Researchers Gate Journal for Studies and Research
ISSN (Print): 3080-1354 ISSN (online): 3079-787X
Volume: 1, Issue: 3
2025

فالاستفهام بـ (متى) ظرف زمان وخرج لغرض (التقرير) لمرور الشاعر بأعلى لواعج الحب والعشق فيستفهم عن الزمان المناسب لبث الشكوى، ويستفهم عن الوقت المناسب للتكلم معها مباشرة بدلًا عن الكتب البريدية. وهو يعلم عن عدم صيرورة ذلك، ولكنه يعبر عن شوقه وحزنه.

رابعًا: كَمْ

قال ابن زيدون:

كَمْ نظرةٍ لكِ في عيني علمتِ بها ۔   يومَ الزيارةِ ۔ أنَّ القلبَ قد ذابا

(ابن زيدون، 2004، ص 142)

قد استفهم الشاعر بالأداة (كم) التي خرجت لفائدة (تعيين العدد). ولقد وظف الشاعر عدة آليات للتعبير عن حبه لولادة فاستخدم اسم الاستفهام الدال على المكان وهو العين ونظرتها، واستخدم الفعل (علم) ليعبر عن إحساس ولادة به ودرجة حبها إياه.

وقال ابن زيدون:

فكمْ رفلتْ فيها الخرائدُ كالدّمى   إذ العيشُ غضٌّ والزمانُ غلامُ

(ابن زيدون، 2004، ص 153)

استخدم الشاعر أداة الاستفهام (كم) لفائدة (تعيين العدد)، ويشير لعدد مرات جلوس النساء الجميلات في الحدائق والتمتع بالجو الجميل والطبيعة اللطيفة.

وقال ابن زيدون: فكم لي فيها من مساءٍ وإصباحِ (ابن زيدون، 2004، ص 154)

فقد استخدم الشاعر الأداة (كم) لفائدة (تعيين العدد)، وتدل على حال الشاعر في قرطبة في مرابع آبائه وأجداده وأحبائه وأشواقه.

وقال ابن زيدون: وكم مشهدٍ عند العقيق وجسره

قعدنا على حُمرِ النباتِ وصفرهِ

وكم رقّ فيه ـ بالعشيّ ـ نسيمهُ (ابن زيدون، 2004، ص 155)

فخرج الاستفهام بالأداة (كم) لفائدة (تقرير غرض العتاب) وذلك بذكر أماكن اللهو والفرح والأوقات الجميلة مع المحبين، فهو يتذكر الأوقات الجميلة ويعاتب ولادة على بغضها إياه.

وقال ابن زيدون: كم بات يدري ليلهُ الغربيبا (ابن زيدون، 2004، ص 185)

فخرج الاستفهام عند الشاعر لغرض (التهويل) وتذكره لأحبته ووطنه من خلال طول الليل وما يذكره من تذكر ولادة والرقباء الذين يحمونها.

وقال ابن زيدون:

كَمْ لامني فيكِ الحسودُ وفنّد الواشي فأكثرْ

(ابن زيدون، 2004، ص 214)

فخرج الاستفهام لغرض (التعجب) من خلال ذكر لوم الحاسدين وتفنيد الوشاة من خلال ذكر عددهم ومدى رغبتهم في الإيقاع بمشروع الزواج من ولادة حسدًا لابن زيدون وولادة.

وقال ابن زيدون:

كَمْ ذا أريدُ ولا أرادُ؟ يا سوءَ ما لقيَ الفؤادُ

يا هاجري كم أستفيدُ الصبرَ عنكِ فلا أفادُ

(ابن زيدون، 2004، ص 225)

فخرج الاستفهام لغرض (التعجب) فيتعجب لمدى صبره على حب ولادة وعدم اهتمامها به.

وقال ابن زيدون:

فديتُكِ كم تغضُّ الطرفَ دوني وكم أدعوكِ من خلفِ الحجابِ

وكم لي من فؤادكِ - بعد قربٍ - مكانَ الشيبِ في نفسِ الكعابِ

(ابن زيدون، 2004، ص 229)

فخرج الاستفهام لغرض (الإنكار)، فيعبر عن إنكار ولادة له وتركها لحبه من خلال كلامه من وراء حجاب، وتركها صداقة ابن زيدون كترك الكعاب للرجل الكبير العمر.

خامسًا: ما

قال ابن زيدون:

ما الذي أنكروه من بثراتٍ ضاعفتْ حُسنهُ وزادتْ حُلاهُ

(ابن زيدون، 2004، ص 144)

فخرج الاستفهام لغرض (النفي)، فهو يصرّ أن البثور في وجه ولادة لا تقلل من جمالها، بل على العكس تزيدها حسنًا وجمالًا.

وقال ابن زيدون:

ما الذي ضرّكَ لو سُرَّ بمرآكِ الحزينُ؟

(ابن زيدون، 2004، ص 224)

فخرج الاستفهام لغرض (النفي)، فالشاعر ينصح ولادة بعدم التكبر لأن مجردِ رؤية ابن زيدون لها سوف يذهب بحزنه الشديد عليها.

مجلة بوابة الباحثين للدراسات والأبحاث
Researchers Gate Journal for Studies and Research
ISSN (Print): 3080-1354 ISSN (online): 3079-787X
Volume: 1, Issue: 3 2025

وقال ابن زيدون:

حسُنتِ خَلقًا فأحسنْ لا تسوءِ خُلقًا   ما خيرُ ذي الحُسنِ إنْ لم يُولِ إحسانا؟

(ابن زيدون، 2004، ص 227)

خرج الاستفهام لغرض (الإنكار)، فالشاعر ينكر على ولادة أن تكتفي بجمال الصورة إذا لم يرتبط به جمال الإحسان بأن تُقدِّر حب ابن زيدون إليها وتتزوج منه.

وقال ابن زيدون:

علامَ أطبتكِ دواعي القِلَى؟   وفيمَ ثنتكِ نواهي العذلْ؟

(ابن زيدون، 2004، ص 247)

إن استفهام الشاعر خرج لغرض (الإنكار)، فهو ينكر على ولادة أنها أخذت كلام الحاقدين والعذال ولم تقتنع بالزواج من ابن زيدون.

وقال ابن زيدون:

أينَ ادّعاؤكِ للوفا   ء؟ وما عدا مما بدا؟

(ابن زيدون، 2004، ص 250)

فخرج الاستفهام لغرض (الإنكار)، فهو ينكر على ولادة الوفاء لحبها بل ينكر حتى الوفاء للصداقة التي دامت بينهما.

وقال ابن زيدون:

إنْ ساءَ فِعلُكِ بي فما ذنبي أنا؟   حسبُ المتيمِ أنّهُ قد أحسنا

(ابن زيدون، 2004، ص 252)

فخرج الاستفهام لغرض (النفي)، فالشاعر يوبخ ولادة لأنها لم تُقدِّر حبه لها ولا ذنب له معها، فجابهت الحب بالبغض والوفاء والصدق بالازدراء والتنكيل.

وقال ابن زيدون:

علامَ صرمتِ حبلكِ منْ وصولٍ فديتكِ واعتززتُ على ذليلِ؟
وفيمَ أنفتِ منْ تعليلِ صَبٍّ صحيحِ الودِّ ذي جسمٍ عليلِ؟

(ابن زيدون، 2004، ص 253)

فخرج الاستفهام لغرض (الإنكار)، فالشاعر ينكر على ولادة التي صدق في حبها ولكنها كانت كاذبة معه ولم تبادله الصدق، فهو يعبر عن ندمه تجاهها.

سادسًا: مَنْ

قال ابن زيدون:

مَنْ مُبلغُ المُبلسينا بانتزاحهمْ حُزنًا مع الدهرِ لا يبلى ويبلينا

(ابن زيدون، 2004، ص 167)

خرج الاستفهام لغرض (الاستبعاد)، فالشاعر يتحدث عن العذال الذين يبعدون الأحباء عن بعضهم.

سابعًا: كيف

قال ابن زيدون:

فلو أستطيعُ طرتُ إليكِ شوقًا وكيفَ يطيرُ مقصوصُ الجناحِ؟

(ابن زيدون، 2004، ص 175)

فالاستفهام خرج لغرض (النفي)، فالشاعر يذكر ولادة وهو في إشبيلية ولا يستطيع الرجوع إلى قرطبة.

وقال ابن زيدون:

كيفَ يسلوكَ مُحبٌّ   زانهُ منكَ حبيبٌ؟

(ابن زيدون، 2004، ص 196)

فخرج الاستفهام لغرض (النفي)، فيعبر ابن زيدون عن عدم قدرته على نسيان ولادة.

وقال ابن زيدون:

أنّى أضيّعُ عهدكِ؟   أمْ كيفَ أُخلفُ وعدكِ؟

(ابن زيدون، 2004، ص 197)

فخرج الاستفهام لغرض (النفي) بأنّه لا يخلف العهد والوعد لولادة.

وقال ابن زيدون:

كيفَ السلو عن الذي   مثواهُ ـ من قلبي ـ السوادُ؟

(ابن زيدون، 2004، ص 225)

فخرج الاستفهام لغرض (النفي)، فابن زيدون ينفي نسيان ولادة لسبب بسيط لأنها في مركز قلبه.

وقال ابن زيدون:

وكيفَ؟ وفي سبيلِ هواكِ طوعًا   لقيتُ منَ المكارهِ ما لقيتُ

(ابن زيدون، 2004، ص 226)

فهنا خرج الاستفهام لغرض (النفي)، فينفي ابن زيدون سهولة اللقاء بولادة بل أنه يلقى من المكاره العظام حتى يراها.

الخاتمة

1. تُعدّ حياة ابن زيدون الأدبية وحسّه المرهف، إضافة إلى طبيعة الأندلس وحبه لولادة، عوامل رئيسة أهلته ليكون شاعر الأندلس الأول.
2. كان شعره صدى لعاطفته المرهفة، وحبه لأرضها وطبيعتها، وعشقه لولادة.
3. جمع غزل ونسيب ابن زيدون بين حب الطبيعة وحب ولادة. أما أسلوبه الفني فتميز بوجود قصائد غزلية مستقلة أو مقدمات غزلية طويلة ومتوسطة لقصائد مدحية، وهي تشكل في مجملها ثلث ما ورد في ديوانه.
4. ساهم استخدام المحركات اللغوية عند ابن زيدون، ومنها أدوات الاستفهام في القصائد الغزلية، وخروجها لمعانٍ مجازية، في إضفاء بهاء وجمال إضافي على شعر النسيب لديه.

المصادر والمراجع

1. أبو زيد، سامي يوسف، وكفافي، منذر ذيب. (2011). الأدب الجاهلي (ط1). دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان.

2. الأصبهاني، أبو الفرج. الأغاني. مؤسسة جمال للطباعة والنشر، طبعة دار الكتب.

3. ابن المعتز. البديع (كراتشوفسكي، ت). منشورات دار الحكمة، دمشق.

4. ابن رشيق القيرواني. (1963). العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده (محمد محي الدين عبد الحميد، ت؛ ط3). مطبعة السعادة.

5. ابن منقذ، أسامة. (1960). البديع في نقد الشعر (أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، ت؛ إبراهيم مصطفى، مراجعة). مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر.

6. الجارم، علي، وأمين، مصطفى. (2008). البلاغة الواضحة (البيان والمعاني والبديع) ويليه للمؤلف دليل البلاغة الواضحة (ط1). مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت ـ لبنان.

7. الهاشمي، أحمد. جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع (ط1). مطبعة سرور.

8. بهنام، هدى شوكت (2000). مقدمة القصيدة العربية في الشعر الأندلسي (دراسة موضوعية وفنية) (ط1). دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد.

9. الربيعي، أحمد. (1973). الرمزية في مقدمة القصيدة منذ العصر الجاهلي حتى العصر الحاضر. مطبعة النعمان، النجف.

10. السعيد، محمد مجيد. (1972). الشعر في ظل بني عباد. مطبعة النعمان، النجف.

11. صبري، هاني. (1989). الاستفهام في شعر السياب (رسالة ماجستير). كلية الآداب ـ جامعة الموصل.

12. عبد العظيم، علي. (2004). ديوان ابن زيدون ورسائله (محمد إحسان النص، تقديم ومراجعة؛ ط3). نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر.

13. العسكري، أبو هلال. (1970). الصناعتين (الطرابزوني، ت). مطبعة الأوائل، المغرب.

14. فيصل، شكري. تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام من امرئ القيس إلى عمر بن أبي ربيعة. دار العلم للملايين، بيروت

15. كفافي، منذر ذيب. (2009). صورة المرأة في شعر الصعاليك واللصوص (ط1). مطبعة كنوز المعرفة، الأردن.

16. خليف، مي. (1989). القصيدة الجاهلية في المفضليات (دراسة موضوعية وفنية). مكتبة غريب، مصر.